مظهرُ التقديس بزوال دولة الفرنسيس

كمصدر لدراسةِ تاريخ الحملة الفرنسية على مصر

(١٧٩٨ ـ ١٨٠١)

دراسة مقدمة لندوة الحملة الفرنسية على مصر (دراسة تقويمية) التى عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمكتبة القاهرة الكبرى، فى الفترة من ١٧ إلى ١٩ مارس ١٩٩٨م.

للمؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى عدةُ مؤلفات فى تاريخ مصر، من أبرزها كتاباه الهامان: «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس[١]»، و«عجائبُ الآثار فى التراجم والأخبار[٢]»، وقد طُبع الكتاب الأول فى جزأين قامت وزارة التربية والتعليم بطبعهما محققين فى عام ١٩٦١، أمَّا الكتاب الثانى فقد طُبع عدّةَ طبعات، تم تحقيقُ إحداهما تحت إشراف المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال، كما ترجم إلى الفرنسية فى تسعة أجزاء.

وكتابات الجبرتى تعد بمثابة الركائز الأساسية فى كتابة تاريخ مصر الحديث[٣]، خصوصًا أن صاحبها ذكر الحقائق التاريخية بدون مواراة أو مجاملة لحاكم أو لغيره. وعالج مشاكل الحياة والمجتمع المصرى معالجة البصير بالأمور، هذا إلى جانب أنه كان يملك موهبة سيكولوجية بعيدة الشفافية مكنته من استيعاب حقيقة الأحداث الضخمة التى وضعت مصر على أعتاب عصرٍ جديد.

---

(١) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بعنوان: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس.

(٢) ظل هذا الكتاب محجوبًا لفترة ليست بالقليلة، حتى أذن الخديوى توفيق بطبعه لأول مرة فى عام ١٨٧٩م بالمطبعة الأميرية ببولاق، ثم تكرر طبعه، فطبع بالمطبعة الشرفية فى عام ١٩٠٥م فى أربعة أجزاء، وقامت وزارة التربية والتعليم بتحقيقه فى عام ١٩٥٨م.

(٣) للجبرتى مؤلفات أخرى فى تاريخ مصر، منها «تاريخ مدة الفرنسيس بمصر»، وقد تناول فيه أحداث الاحتلال الفرنسى فى الفترة من ٢٥ يونيو ١٧٩٨ إلى ديسمبر ١٧٩٨.

والكتاب ـ موضوع دراستنا ـ قام الجبرتى بتأليفه فى أعقاب خروج الفرنسيس من القاهرة فى أواخر صفر من عام ١٢١٦هـ (١٨٠٢م)، وانتهى من كتابته بعد حوالى ستة أشهر، أى فى أواخر شعبان من نفس السنة، وهى فترة قصيرة بالنسبة لما يحتويه الكتاب من تفاصيل ووقائع(١).

أما عن أسباب تأليف الجبرتى لهذا الكتاب فإنه بعد خروج الحملة من مصر فى عام ١٨٠١ وعودة العثمانيين إليها مرة ثانية، رأى الجبرتى أن يعبر عن سعادته بخروج الحملة فصوّر شعوره وشعور مواطنيه بأن رحب بالعثمانيين بإهداء قائدهم الصدر الأعظم «يوسف ضيا باشا» ـ الذى تسلم زمامَ الأمور فى مصر ـ كتابًا يوضح أخبار الحملة، ويُشيد من خلاله بالدولة العثمانية، فوضع هذا الكتاب الذى استقبله الصدر الأعظمُ بترحاب كبير، وعرضه بعد ذلك على السلطان العثمانى سليم الثالث(٢)، الذى أمر بترجمته إلى التركية(٣).

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يعدّ وثيقة تاريخيةً هامةً لفترة الحملة، خصوصًا أن صاحبها كان معاصرًا لأحداثها، كما أنه كان على صلاتٍ واسعةٍ ببعض علمائها، هذا إلى جانب عضويته فى الديوان فى عهد «مينو»، مما مكنه من تحرى أخبارِ الحملة، وتقصّى آثارها، وتتبع أمورها، والاطلاع على منشورات قادتها وبعض مراسلاتهم، ومن هنا يمكن القول بأن كتاب «مظهر التقديس» يعد بمثابة التاريخ الرسمى للحملة، وخصوصًا أنه يحتوى على مجموعة كبيرة من المنشورات والبيانات والمكاتبات الرسمية التى أصدرتها سلطات الاحتلالِ الفرنسى، وأنه أمدّ الباحثين والكتّابَ بالكثير من التفصيلات التى أغفلها مَنْ عاصرَ الحملةَ من الكُتَّاب الآخرين أمثال نقولا ترك اللبنانى، وعبد الله الشرقاوى، والشيخ المهدى، وغيرهم، كما أنه بذل الجهود الكثيرة من أجل إيضاح الحقائق بلغة وأسلوب العصر الذى عاشه، فاهتم بالمحسنات اللفظية، وبالكثير من القطع الأدبية والشعرية التى تعبِّر عن روح العصر.

يُضاف إلى ذلك أن ما كتبه الجبرتى يعد وثيقة تاريخية هامة وفريدة فى تاريخ مصر

---

(١) يبدو أن الجبرتى استعان أثناء تأليفه لمظهر التقديس بما كتبه من قبل تحت عنوان «مدة الفرنسيس بمصر»، ويؤكد ذلك قوله فى مقدمة هذا الكتاب: «ولقد كنت سطرت ماحصل من الوقائع..».

(٢) تولى حكم الدولة العثمانية فى الفترة من ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧م.

(٣) قام مصطفى بهجت كبير أطباء السلطان بترجمة هذا الكتاب إلى التركية فى عام ١٨٠٣م.

السياسى والاجتماعى، خصوصًا أنه يحمل بين جنباته صورة مفصلة عن حياة المصريين الاجتماعية، كما يتضمن التأثيرات التى أوجدها الفرنسيون فى مصر.

ويتناول هذا الكتاب تاريخ مصر وحوادثها، وتراجم أبرز رجالاتها، ابتداء من وصول الفرنسيين إلى مصر، وينتهى بنهاية الحملة[١]. وقد كتبه الجبرتى على شكل مذكرات يومية لأحداث الحملة. وفى مقدمته حمل الجبرتى على المماليك واعتبرهم مسئولين عن وقوع البلاد تحت الاحتلال الفرنسى، وأرجع ذلك إلى تطرق الخلل إلى دولتهم، وإلى إهمالهم تحصين الثغور حتى داهمها الفرنسيون، وأثنى على الدولة العثمانية، ورحّبَ بعودة الحكم العثمانى.

أما عن الفرنسيين فقد أظهر لهم الجبرتى فى هذا الكتاب كراهية شديدة[٢]، فحَمَل على الحكم الفرنسى لكونه حكمًا غير إسلامى، يختلف فى دينه وعاداته وتقاليده عن تقاليد الشعب المصرى وعاداته، وانتقد تبرج النساء وارتدائهن الملابس الملونة وركوبهن الخيل، والأكل والشرب علنًا فى رمضان، كما انتقد تعاطى المسكرات وشرب الخمر فى العلن، وتحويل بعض الدور إلى أماكن للتسلية والمجون والمنكرات، وهاجم بيوتَ الدعارة والخلاعة التى افتتحها الفرنسيون وما تستحسنه نفوسهم بحب الشهوات. كما تأصلت فى نفس الجبرتى كراهية الفرنسيين بعد أن دخلوا الأزهر بخيولهم خلال قمعهم لثورة القاهرة الأولى[٣]، مما جعله لايذكر اسم أىٍّ من الفرنسيس إلاَّ مصحوبًا بأقذع النعوت، مثل: الكافر، أو اللعين، أو التعيس، أو الشرير، فيقول: التعيس بونابرته، واللعين ديبوى، وهكذا[٤].

والغريب فى الأمر أن الجبرتى فى هـذا الكتاب يُغْفِلُ اتصاله بالفرنسيين وحضور حفلاتهـم، ومشاهـدة تجاربهـم، وأحاديثـه مع علمائهم، واشتراكه فى الديوان[٥]،

---

(١) الجدير بالذكر أن الجبرتى سجل هذه الحقبة فى الجزء الثالث من كتابه «عجائب الآثار»، مع فارق واحد، هو أن «مظهر التقديس» يتوقف عند نهاية الحملة الفرنسية، فى حين أن الجزء الثالث من عجائب الآثار يستمر حتى تولية محمد على.

(٢) لتفاصيل ذلك انظر: مظهر التقديس، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٣) انظر على سبيل المثال: مظهر التقديس، صفحات ٨١ ـ ٨٢.

(٤) عن هذه الأوصاف يمكن الرجوع إلى «مظهر التقديس» صفحات ٤، ٢٣، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٧٩، ٢٥٠.

(٥) عُيِّن الجبرتى عضوًا فى الديوان الثالث الذى أنشأه الجنرال «مينو». [انظر: عجائب الآثار، جـ٣، ص ١٤٤].

ورأيه في محاكمة سليمان الحلبي[١] كما ذكر ذلك فيما بعد في كتابه عجائب الآثار.

وعلى الرغم من كل ذلك، وبالرغم من أن كتابات الجبرتي كانت في مظهر التقديس مغلفة بالعاطفتين الدينية والوطنية، مما أبعده إلى حد كبير عن موضوعية المؤرخ، فإنه يصعب على من يؤرخ للحملة الفرنسية الاستغناء عن هذا الكتاب، خصوصًا أنه ترك لنا صورة فريدة عن أحوال الحملة الفرنسية على مصر.

وعلى أي حال، فإنه بتطور فكرة كتابة التاريخ عند الجبرتي انعكست الصورة في تفكيره السياسي، وأصبح أكثر موضوعية[٢] عند كتابته لكتابه «عجائب الآثار» الذي أصدره بعد «مظهر التقديس»، والذي نظر فيه إلى الأمور بعين الناقد الموضوعي أكثر من ذي قبل، فعلى الرغم من أنه الشيخ الأزهري المتدين الذي يكره أي حكم غير إسلامي لبلاده، فإنه اعتبر أن الحكم العثماني كان أشد وطأة ـ برغم إسلاميته ـ من الفرنسيين، كما ذكر أن الفرنسيين أتوا من الأعمال ما يجعلهم أحيانًا أفضل من العثمانيين. وأشاد بتفوق الفرنسيين العلمي بعد أن قام بزيارة المعهد العلمي الفرنسي[٣] بحارة الناصرية، وأبدى إعجابه بتنظيمهم لأعمال الديوان، ونظامهم في القضاء، خصوصًا خلال محاكمتهم لسليمان الحلبي، ولم يتوقف الأمر على ذلك، بل إنه توقف عن ذكر العثمانيين بالمسلمين، بل أطلق عليهم العسكر، كما توقف عن وصف الفرنسيين بالكفار[٤].

وعلى أي حال، فإنه مما يؤخذ على الجبرتي في «مظهر التقديس» هو إسرافه في مدح العثمانيين ومجاملتهم بالشكل الذي لايتفق مع الموضوعية، وانغماسه في الكتابة المسجوعة أكثر من اهتمامه بالمحافظة على الكتابة باللغة العربية الصحيحة. وتغلُّب عاطفته الدينية والقومية على صفة الحيادية، ويرجع البعض ذلك إلى اعتقاد الجبرتي بأن خروج الفرنسيين وعودة العثمانيين قد يؤدي إلى استقرار الأمور وتحسين الأحوال، كما يرجعه البعض الآخر إلى خشية الجبرتي من اتهامه بالتعاون مع الفرنسيين بصفته أحد أعضاء الديوان، فأراد أن يبرِّئ نفسه عن طريق الإسراف في مدح العثمانيين وذمِّ الفرنسيين.

---

(١) أورد الجبرتي خبر هذه الحادثة موجزًا في «مظهر التقديس»، في حين أفردَ له صفحات عديدة في عجائب الآثار أشاد فيها بعدالة الفرنسيين خلال محاكمتهم لسليمان الحلبي.

(٢) محمد أنيس: الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار، بحث منشور بمجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، جـ١، مايو ١٩٥٦ (المجلد الثامن عشر).

(٣) انظر: عجائب الآثار، الجزء الثالث، ذكر حوادث شهر جمادى الثانية ١٢١٣هـ.

(٤) يوجد بمظهر التقديس إحدى وثلاثون فقرة تخالف ما جاء بعجائب الآثار، منها اثنتان وعشرون فيها سَبٌّ للفرنسيين.